كلمة عميد الإذاعة في احتفال الأوّل من آذار 2023.

حضرة الأحبّة رفقاء ومواطنين

نلتقي في هذه المناسبة، وفي مناسبات قوميّة أخرى، وفي لقاءاتنا لا همّ لنا، ولا مرمى لتطلّعاتنا سوى مصلحة أمّتنا؛ نرنو إلى تاريخها فإذا هو حافل بكلّ ما يبني ويغني؛ وننظر إلى حالنا اليوم فإذا نحن أمام كمٍّ من الأزمات المتراكمة التي تلفّ حياتنا وتعيق القدرة على الانتقال إلى ما هو أفضل وأجود.

ولأنّ ضخامة الحاصل قد يتجاوز القدرة على تحمّله، فإنّنا نشهد حالات الترهّل واليأس تحاصر مجموعاتٍ كبيرة، وتفقدهم السبيل إلى أملٍ في الإنقاذ والخلاص، في ظلّ عمل مجموعات أخرى لتعميق حالة اليأس بقصد الاستفادة الفرديّة أو المجموعيّة القصوى. وهذا يعني بمنظور اليائسين أنّ الخروج من هذا النفق المظلم بات شديد الصعوبة وفي أسوأ الأحوال ربّما يصل إلى حدّ الاستحالة. وهذا أخطر ما يمكن أن يصل إليه شعبٌ من الشعوب، لأنّه يسجن نفسه في أقبية الكسل والعجز والقلق وتعطيل الإرادة البانية المنقذة.

إذا كانت هذه هي الحال، فما الذي نبغيه ونرتجيه من عملنا الدائم الدؤوب؟ هذا العمل الذي يستحوذ على كامل أوقاتنا؟ وهل بذل الجهد سدًى يخفّف من أثر المعطِّلات الحياتيّة؟

قد يتسرّب اليأس إلى النفوس، كلّ النفوس المستسلمة في أمتنا، وتعمل على الهرب من هذا الوضع الضاغط، إمّا بالانزواء أو بالتفتيش عن وسيلة تحمله على بساط الهجرة إلى دنيًا الله الواسعة. التي قد يكون الحال فيها أسوأ ممّا يظنّونه أفضل.

إنّ أخطر ما يعيق الخروج من النفق المظلم هو الخضوع لأوضاع معقدّة يظنّها القاصرون أنّها خارج دائرة الحلول؛ علمًا أنّ الأنين والبكاء والتباكي على أيّام مشرقة لن تحوّل ما هو مزرٍ إلى حالٍ سويّ يريح النفوس وينتشلها من بؤر الضياع والقلق.

إنّ الخطبَ والمقالات لا تؤدّي دورها البنائيّ إن هي افتقرت إلى القاعدة الواضحة العلميّة الشاملة، وتجاهلت الناحية العمليّة؛ لا بل تزيد من وطأة المأزوم وتدفع الناس إلى المدى اليائس القتّال. ومن هنا نلاحظ التخبّط في مستنقعاتٍ من الجهل، يتلاطم فيها السيّئ والأسوأ، ولا يؤمّن بعضًا قليلًا من الانتقال إلى حالةٍ يرتاح لها الناس؛ فالتخبّط لم ينتج، ولن ينتج ثمرًا يؤكل.

في وقفة تقييميّة نرى بعين بصيرتنا والبصر التحايل المقيت الذي يتوسّله أهل سياسة ورجال دين في امتصاص القدرات المادّيّة والمعنويّة للحفاظ على مكتسباتٍ على حساب مصلحة الأمّة والوطن.

ولا شكّ أنّ هذا الجنوح التخريبيّ، بعضه ناتج جهلٍ، وبعضه ناتج تجاهل وهو الأخطر؛ ولا يظنّن أحد أنّ الخلاص من هذه الحالة يتم بكبسة زرّ أو بسحر ساحر، فالأمر يتطلّب وقتًا قد يطول وقد يقصر تبعًا لفاعليّة العاملين الواعين المؤمنين. واللجاجة، في الحال هذه، لا توصل إلى نتيجة بل تزيد من حمّى الاندفاعات غير المدروسة، والتي قد توصل إلى نتائج لا تحمد عقباها.

وليس من حلٍّ في ظلّ هذه الالتواءات الاجتماعيّة والنفسيّة، والانحدارت السياسيّة والاقتصاديّة، والاختلالات المسلكيّة والأخلاقية، إلّا باعتماد الأسس التي جاء بها ابن الأوّل من آذار؛ أسس الوحدة الحياتيّة على البيئة السوريّة الواحدة؛ أسس قائمة على النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفنّ، المجسّدة بالمبادئ الأساسيّة والإصلاحيّة للحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ؛

بذا ندخل في مسارٍ نهضويٍّ حقيقيّ، ينقذنا من ممارسات رجال دينٍ يستغلّون الدين من أجل تحقيق رغباتٍ اجتماعيّة وسياسيّة تشوّه وجه الدين الحقيقيّ، وتجعل من الدين مطيّة لشؤونٍ دنيويّة هي من اختصاص آخرين.

وبذا أيضًا نضع حدًّا لأولئك الذين يحاولون التلاعب بالمقوّمات العقائديّة الثابتة الراسخة للوصول إلى أغراضٍ تخدمُ خلفيّاتهم المشوَّهة والمشوِّهة ولا تلامس مصلحة الحياة الحقيقيّة.

وبذا كذلك نلجمُ جموح العاملين في حقلِ السياسة المنفعيّة القائمة على المبدأ الهدّام "بعد حماري ما ينبت ولا عشبة"، هؤلاء الذين شرنقتهم الأنا، وقطعت الأوصال بينهم وبين الآخر، لا يشفيهم من وبائهم هذا إلّا الفكر القوميّ الاجتماعيّ، فلا يغرقنّ التائقون إلى الحياة الفضلى في مستنقعات التخديرات الواهية الواهمة، إذ لا ينفعهم إلّا المبضع القوميّ الاجتماعيّ الذي ينتزع الأورام ويبلسم الجراح.

لندع وسائل التخدير على انواعها،ولنلتزم بما يشفي مهما كان موجعًا، ومهما كلّف من وقت؛ فالوقت شرط أساسيّ لكلّ عملٍ خطير. فلا خلاص من هذه المعاناة المرّة إلّا بما أعطى سعادة وشرح وفصّل وأوضح.

ومن المهمّ التأكيد أنّ اليأس الذي قد يتسرّب إلى النفوس الضعيفة، لن يجد طريقًا له إلى نفوس السوريّين القوميّين الاجتماعيّين المؤمنين بعقيدةٍ تعبّر عن حقيقة حياتهم، وتشكّل طريق الخلاص والإنقاذ الوحيدة؛ هؤلاء يدركون خطورة الهدف الكبير الذي يعملون له؛ يراقبون خلل الآخرين وممارساتهم، كاشفين عورات الزاحفين وراء منافعهم الخاصّة تحت عناوين أقلّ ما يقال فيها، أنّها تلبّي أغراضهم الفرديّة، وتستسلم لغرائزهم، ولكنّها لا ولم ولن تلامس تحقيق شيءٍ من مصلحة الحياة السوريّة.

هؤلاء المؤمنون لن يحبطوا مهما ازدادت الصعوبات، وتراكمت الأزمات، واشتدّ هول الضغوطات المادّيّة والمعنويّة، وتسلّح البعضُ بضعاف النفوس الذين يفتّشون عن موقعٍ لهم لتبرير ضعفهم، بمحاولات السطو على قدسيّة الدستور وسموّ النظام؛ ومهما تدافعت حشود المحتلّين من كلّ صوب، وتمادى اليهوديّ المغتصِب بعدوانه على أهلنا في الجنوب المغتصَب، وبقضم الأراضي مساحةً إثر مساحة، وبالعمل الدؤوب للتطبيع مع بعض الأنظمة

في عالمنا العربيّ، بموازاة الأحوال الطبيعيّة الكارثيّة التي خلّفت دمارًا، وأزهقت أرواحًا وشلّعت نفوسًا وإرادات؛ رغم ذلك لن يتسرّب اليأس إلى نفوسهم،التزامًا بوصيّة سعادة لهم في رسالة إلى الرفيق عبدالله النعواس في 25 حزيران 1936:

"إنّ وصيّتي اليوم إليكم وإلى جميع السوريين القوميين في الجنوب هي أن يقوم كلّ فرد بما يدعوه إليه الواجب القومي في الظروف العصيبة الحاضرة وأن لا يسمح أحدكم باليأس يتسرّب إلى قلبه عند مشاهدة الفوضى في العمل وما تؤدّي إليه من نتائج بل أن يظلّ كلّكم مؤمنًا بأمّته الّتي لن تموت وبحزبه الّذي يسير دائمًا إلى الأمام".

وفي السياق عينه:

"لا نيأس حتى ولو أُكّد لنا أنّ الجيوش الأجنبية المحتشدة في وطننا قد بلغت مليونًا أو مليونين... فلا بدّ لهذه الجيوش من ساعة تذهب فيها إلى مصيرها ولا بدّ للجيش السوري القومي الاجتماعي من ساعة يتحرّك فيها ليثبت حقّ سورية في الحياة. ومتى تحرّك الجيش السوري القومي الاجتماعي مشت الأمّة السورية نحو مكانها وحقّها في الحياة وكان في مشيتها القضاء والقدر!"

لتحيَ سورية وليحيَ سعادة

في 12 آذار 2023 عميد الإذاعة في الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ

الرفيق نايف معتوق